من أجل فهم سرّ الإفخارستيا



الأب ألكسندر شميمن

ترجمة وإعداد
الراهب القمص مرقوريوس الأنبا بيشوى

عن كتاب

Alexander Schmemann

For the life of the world
Sacraments and orthodoxy

St. Vladimir's seminary press 1988

الكتـــاب :«من أجل فهم سرّ الإفخارستيا»

المؤلـــف : الأب ألكسندر شميمن

ترجمة وإعداد : الراهب القمص مرقوريوس الأنبا بيشوى

الطبعـــة : الأولى - ٢٠٠٧

المطبعـــة : مكتب النسر للطباعة - ٢٦٣٢٠٩٧١

رقم الإيـداع : ٢٠٠٧/٢٢٩٧٩



قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث

ونيافة الأنبا صرابامون أسقف دير الأنبا بيشوى

مُقَدِّمَة

❖ **«مَنْ يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبديَّة....»** (يو٦: ٥٤).

سُّر الإفخارستيا هو سُّر الأسرار فى الكنيسة، بل هو نفسه سُّر المسيح والكنيسة.

سُّر الإفخارستيا، زاد روحى، يُقدَّم للإنسان ليس مجرداً أو كطقس منفرد أو ممارسة قائمة بذاتها، بل فى إطار العبادة الليتورجية التى تبدأ بقراءة كلمة الله وتنتهى بالتناول من الجسد والدم الأقدسَيْن. ويسمَّى القديس إغناطيوس الأنطاكى (سنة ١١٠م) الإفخارستيا بأنها «ترياق عدم الموت»، ويندِّد بشدة: «بِمَنْ لا يقولون أن الإفخارستيا هى جسد مخلصنا يسوع المسيح». ويعتبر إنكار هؤلاء بمثابة إشارة إلى إنكارهم بأن المسيح اتخذ لنفسه جسدًا حقيقيًا.

لذلك فالغرض الأساسى للخدمة الليتورجية هو قبول شخص المسيح ونوال ثمار الخلاص الذى أتاه المسيح بتجسُّده.

فالقدَّاس الإلهى هو طاقة تفتح على الأبدية مباشرة، نطل منها على اليوم الذى صنعه الرب، بل هو أكثر من إطلاله، فنحن نعيش أثناء القدَّاس ذلك اليوم نفسه الذى صنعه الرب، نخرج من حدود الزمن الفانى ونعيش حياتنا الأبدية.

هو خروج من هذا العالم، وارتقاء إلى السماء، لذلك هو مركز العبادة ومحور الحياة الليتورجية.



الشهيد العظيم فيلوباتير مرقوريوس

(أبى سيفين)

أرجو من الرب أن يستخدم هذا العمل البسيط لمجد اسمه ولمنفعة أولاده. بصلوات أبينا الطوباوى البابا شنوده الثالث وشريكه فى الخدمة الرسولية أبينا الأسقف المكرم الأنبا صرابامون.

الراهب القمص مرقوريوس الأنبا بيشوى

٨ بابه ١٧٢٣ش نياحة القديس
١٩ أكتوبر ٢٠٠٧م أنبا بولا الطموهى

✠ من هو الأب ألكسندر شميمن؟

❖ أحد مشاهير اللاهوتيين الأرثوذكس[1] المعاصرين.

❖ ولد عام ١٩٢١م في جمهورية ليتوانيا السوفيتية، بعد ٤سنوات من قيام الثورة البلشفية الشيوعية في روسيا. وتلقى تعليمه الثانوى والعالى في باريس بفرنسا.

حيث كانت اسرته قد هاجرت إلى هناك. وبعد أن أكمل بكالوريوس الفلسفة انضم إلى معهد القديس سرجيوس اللاهوتي الأرثوذكسى في فرنسا حيث نال إجازته. وفي نفس العام أُختير ضمن هيئة تدريس المعهد كمحاضر في تاريخ الكنيسة.

❖ انضم إلى معهد القديس فلاديمير اللاهوتي في نيويورك عام ١٩٥١م كأستاذ لعلم اللاهوت الليتورجي. وقد نال الدكتوراه في اللاهوت عام ١٩٥٩م، وفي عام ١٩٦٢م أُختير عميدًا لهذا المعهد. وسرعان ما اشتهر كعالِم وشارح لاهوتي لعلم «اللاهوت الليتورجي» الأرثوذكسى، وكان يرىَ أن التقليد الليتورجي في الكنيسة هو علامة وتعبير أمين لإيمان الكنيسة.

❖ وبسبب رسوخ مكانته العلمية، فإن نشاطه لم يقتصر على معهده اللاهوتي، بل شغل مناصب علمية في الجامعات الأمريكية المختلفة. وفوق هذه المناصب المختلفة كلها، فقد كان ممثلاً نشيطًا للكنيسة الأرثوذكسية (بتقليدها الشرقي الطقسي الإيماني) في المجتمعات المسكونية فاستطاع أن

(١) من أسرة الكنائس الشرقية الأرثوذكسية التي تعترف بمجمع خلقيدونية.

يكشف للمسيحيين الغربيين أصالة الكنيسة الأرثوذكسية وعمق إيمانها وصحة تعاليمها.

❖ تتضمن مؤلفاته ثمانية كتب، منها كتاب For the life of the world الذي تُرجم إلى ١٤ لغة.

❖ جاء إلى مصر عام ١٩٧٨م، زار خلالها المعاهد اللاهوتية في الكنيسة القبطية وأديرة وادي النطرون. وقد زار قداسة البابا شنوده الثالث.

❖ في ١٣ ديسمبر ١٩٨٣م انتقل من هذا العالم عن عمر يناهز الثانية والستين.

✠ ✠ ✠ ✠

سر الإفخارستيا

- ١ -

لقد رفض العالم المسيح. كان المسيح هو التعبير الكامل عن الحياة كما قصد الله أن تكون. لقد تجمعت أشلاء حياة العالم في حياته. كان هو القلب النابض للعالم، لكن العالم قتله. وكان في ذلك موت للعالم. وهكذا أضاع العالم فرصته الأخيرة أن يصير مرة أخرى الفردوس الذي خلقه الله ليكون إيّاها. قد يكون في إمكاننا. ولابد أن نفعل ذلك- أن نبني مجتمعات أكثر مدنية ورقيًا. بإمكاننا أن نُقيم مجتمع يحفظ حقوق الإنسان بأفضل صورة ممكنة. وقد ننجح في بناء مجتمع لا يقتل فيه الناس بعضهم البعض. ولكن حينما رذل الناس المسيح الذي هو الحياة الحقيقية للعالم- كان هذا إشارة لبداية النهاية. لم يكن ممكنًا الرجوع عن ذلك الموقف الرافض له. لقد صُلب المسيح وانتهى الأمر. وكما قال باسكال[1]: «المسيح في نزاع إلى أن ينتهي العالم».

كثيرًا ما تبدو المسيحية وكأنها تبشر بجهاد الإنسان ليحيا الحياة المسيحية السلوكية ظاهرياً كأن بالإمكان بأسلوب أو بآخر، إلغاء الصليب. لكن، إذا كان مثل هذا التصور واردًا أحيانًا فذلك لأن المسيحية قد نسيت نفسها، نسيت أنها لابد أن تقف دائمًا عند الصليب أولاً. ليس كأن هذا العالم لا يمكن أن يترقى ويُصلح، فإن كان من أهدافنا أن نعمل

---

(١) باسكال Pascal (١٦٢٣-١٦٦٢م):فيلسوف ورياضي وأديب وفيزيائي فرنسي. له اكتشافات كالآلة الحاسبة وقوانين ضغط الهواء والماء وتوازن السوائل. وضع الخطوط الرئيسية في الدفاع عن الدين المسيحي نُشرت بعنوان «الخواطر» فكان لها تأثير واسع. (المترجم)

من أجل السلام والعدالة والحرية. إلاّ أننا نؤمن أنه حتى ولو انصلح حال العالم، لكنه لن يصير أبدًا هو المكان الذي قصده الله أن يكون (الفردوس المفقود).

المسيحية لا تدَين العالم، بل العالم هو الذى حكم على نفسه حين حكم على مَنْ هو حياة العالم الحقيقية، هناك عند الجلجثة **«كان في العالم، وكوّن العالم به، ولم يعرفه العالم»** (يو١: ١٠). إن كنا نتأمل مليًا في المعنى الحقيقي لهذه الآية فسنعرف أنه على قدر ما نكون شهودًا لإنتهاء الفرح الطبيعي للعالم. شهودًا لإنتهاء إكتفاء الإنسان بهذا العالم وبنفسه، لإنتهاء السعادة (الدنيوية) أي: الحياة حينما تُطلب لذاتها وفي ذاتها، فحينئذ نحن مسيحيون. فلم يكن المسيحيون بحاجة إلي انتظار الوجوديين ليحدثوهم عن القلق واليأس واللامعقول ليفهموا كل ذلك. ورغم أن المسيحيين عبر تاريخهم الطويل كثيرًا ما نسوا معنى الصليب، واستمتعوا بحياتهم، كأن شيئًا لم يحدث. ورغم أن كل واحد منا كثيراً ما يتخلى عن صليب المسيح. مع أنه يعرف أن العالم الذي مات فيه السيد المسيح، قد انتهت فيه الحياة الطبيعية وبلغت نهايتها.

— ٢ —

ولكن المسيحية – مع ذلك- كانت منذ نشأتها هي إعلان للفرح. والفرح الوحيد الممكن على هذه الأرض. لقد جعلت المسيحية المستحيلات ممكنات. فمن عمق الظلمة التي انحدر إليها العالم. بّشرت المسيحية بفرح جديد، ونقلت إلى العالم الفرح الحقيقي، وبهذا الفرح حوّلت النهاية المظلمة إلى بداية مفرحة.

بدون إعلان الفرح هذا، لا يمكن أن تُفهم المسيحية. الكنيسة منتصرة على العالم فقط حينما تكون في فرح. وهي تفقد العالم حينما تفقد الفرح، أي حينما تكف أن تكون شاهدة للفرح. إن أقسى إتهام يوجّه للمسيحيين هو ذاك الذي صدر عن نيتشه[1] حين قال إن المسيحيين لا يعرفون الفرح.

يمكننا أن نفهم رسالة الكنيسة جيدًا في إطار «فرح عظيم» والذي منه يستمد كل شيء في المسيحية معناه: «فها أنا أبشركم **بفرح عظيم** يكون لجميع الشعب» هذه هي بداية الإنجيل. أمّا نهاية الإنجيل فهي هكذا: «فسجدوا له ورجعوا إلى أورشليم **بفرح عظيم**» **(لو٢:١٠،٢٤:٥٢)**. هذا الفرح العظيم هو الذي لابد أن نكتشف معناه. لابد إن أمكن أن نشترك فيه، قبل أن ندرس ونناقش أي موضوع آخر في الكنيسة والخدمة والبرامج والرحلات والمشاريع.. ألخ.

هذا الفرح ليس بالشيء الذي يمكن تحليله وحصره. فالإنسان ليس عليه أن يصنع شيئًا سوى **أن يدخل** إلى الفرح: «**ادخل** إلى فرح سيدك» **(مت٢٥:٢١)**. وليس لدينا أي وسيلة أخرى بها ندخل إلى هذا الفرح ونفهمه، إلاّ من خلال عمل واحد كان منذ البدء، هو أصل وتحقيق الفرح للكنيسة، أو الذي هو: سُّر الفرح الوحيد، سُّر الإفخارستيا.

---

(١) نيتشه Nietzsche (١٨٤٤ - ١٩٠٠م): فيلسوف ألماني. أخذ بمذهب التطور وقال أن الحياة ليست غير تنازع البقاء وبقاء الأصلح. وإن «الإنسان الأعلى» هدف يجب الوصول إليه. يتلخص مذهبه بما يُدعى «إرادة القوة». (المترجم)

الإفخارستيا ليتورجيا[1] ومن يستخدم هذا المصطلح اليوم يعرّض نفسه للدخول في جدال. فالليتورجيا، بالنسبة للمتحمسين لها، هي أهم عمل من أعمال الكنيسة، إن لم تكن عملها الوحيد، وبالنسبة للبعض الآخر، فهي نوع من الشكليات وإنحراف روحي عما يرونه واجب الكنيسة الأساسي. هذا وإن كان اليوم بين الكنائس من هي «ليتورجية» ومن هي «غير ليتورجية» والأمر نفسه صحيح بالنسبة للمسيحيين. ولكن، مهما يكن، فإنه لا ضرورة لهذا الجدال. لأنه يحمل في جذوره مغالطة أساسية واحدة هي نوعية الفهم «الليتورجي» لليتورجيا. فلا ينبغي أن نفهم أن الليتورجيا هي فقط ممارسات «شعائرية» أو هي عمل «مقدس» في العبادة، لا يختلف عما يدخل في نطاق ما هو «دنيوى» في الحياة، بل ربما مختلف عن باقي نشاطات الكنيسة.

فليس هذا هو المعنى الحقيقي لليتورجية في اللغة اليونانية. أن كلمة «ليتورجيا» تعنى عملاً يتم بواسطة جماعة من الناس فتتحول إلى وحدة متحدة لا يمكن أن يكونوا عليها بمجرد أن يجتمع أفراد هذه الجماعة– أي

---

(١) الليتورجيا: هي كلمة يونانية λειτουργια ومعناها عامة أو عمومية **الصلاة التي يسمح فيها باشتراك الكاهن والشماس مع الشعب.**

ولكنها صارت تعنى بشكل خاص صلوات (خدمة) الكنيسة المسيحية، حيث أُستخدم الفعل: يخدمون (ليتورجونتـــون) في اليونانية λειτουργνντων الرب (أع١٣:٢) والمعنى الحرفي للآية: **وبينما هـــم يقيمـــون ليتورجيـــا إذ هـــم صائمون.**

وفي الكنيسة المسيحية، ابتداءً من العصر الرسولي، صارت الخدمة أي الصلوات المسيحية، مع أعمال المحبة هي ليتورجيـــا الكنيسة.

ومن اليونانية دخلت كلمة (ليتورجيا) إلي القبطية، ونُقلت كما هي بحروفها اليونانية ومعناها اليوناني.

وقد أبقى المسيحيون الشرقيون على هذه الكلمة فيقولون ليتورجيا (قداس) القديس (...) (المترجم).

أنها شيء ما أقوى وأعظم من مجموع أجزائه. لقد كانت تعنى أيضًا «وظيفة» أو «خدمة» يقوم بها إنسان أو جماعة من الناس نيابة عن المجتمع كله ولصالحه. هكذا كانت الليتورجيا التي لإسرائيل القديم، عملاً مشتركا لقلة مختارة من أجل إعداد العالم لمجيء المسيا. وبهذا العمل صاروا اسمًا على مسمى أنهم «إسرائيل الله» الأداة المختارة للقصد الإلهي الذي تحقق بمجيء المسيح.

وهكذا فالكنيسة وهي بذاتها «ليتورجية»، و«خدمة» هى دعوة للسلوك في هذا العالم على مَثَال المسيح، تحمل شهادة لشخصه وملكوته.

والليتورجيا أو ليتورجيا الإفخارستيا لا يجب إذن أن تُفهم على أنها شعائر فقط، لذلك فإن الشرط الأول لفهم الليتورجيا فهمًا صحيحًا هو أنها ليست مجرد شعائر.

الليتورجية «سرٌّ» وليست «سحرًا». فالإفخارستيا هي **دخول** الكنيسة إلى فرح سيدها. والدخول إلى الفرح يتحوّل فيما بعد إلى شهادة له في العالم. وهذه هي دعوة الكنيسة وخدمتها أي «ليتورجيتها».

هذا، وفي وصفي المختصر للإفخارستيا، كما سيأتي بعد قليل، سوف أعود إلى المصادر الأولى لليتورجيا الإفخارستية الأرثوذكسية. وذلك لسببين أولهما أنه لا يمكن لأحد في نطاق الليتورجيا، أن يتكلّم، عن قناعة، إلاّ بقدر ما يكون هو نفسه قد اختبر ما يتحدّث عنه وإن خبرة كاتب هذه السطور كانت له في إطار التراث الأرثوذكسي الذى يعتمد على التقليد الكنسى. وثانيهما، لأن رأى علماء الليتورجيا مجتمعين هو أن الليتورجيا الأرثوذكسية هي خير حافظ على تلك العناصر.

— ٣ —

إن أفضل فهم للإفخارستيا هي أنها رحلة أو مسيرة. إنها رحلة الكنيسة إلى بُعد (مجال) الملكوت. وكلمة «بُعد» هي أفضل إشارة، فيما يبدو لي، إلى كيفية دخولنا السرائرى إلى حياة المسيح القائم من بين الأموات. جودة الصورة تكاد تكون مبهرة متى كانت في ثلاثة أبعاد بدل اثنين. فوجود هذا البعد الإضافي يسمح لنا بمشاهدة أفضل للواقع الذي سبق تصويره. على هذا المنوال، تقريبًا، يكون دخولنا إلى حضرة المسيح دخولاً إلى بُعد رابع يسمح لنا برؤية هذه الحقيقة الأخيرة للحياة. وليس ذلك بالهروب من العالم، بل بالوصول إلى نقطة مرتفعة بمقدرونا منها أن ننظر إلى حقيقة العالم بعمق أكبر.

إن الرحلة تبدأ حينما يغادر المسيحيون بيوتهم ومخادعهم. إنهم يتركون، بلاشك حياتهم في هذا العالم الحاضر الواقعي، وسواء استدعى الأمر أن يسيروا عشرات الأميال أو عدة خطوات فالعمل السرائرى يأخذ مجراه، أنه عمل له الصفة الحقيقية عن كل ما عداه. فإنهم الآن في طريقهم ليكوّنوا الكنيسة، أو بتعبير أدق، ليتحوّلوا إلى كنيسة الله. فهم أفرادًا، البعض منهم أبيض اللون والبعض أسود البشرة، البعض فقير والبعض غني، فهم العالم الطبيعي، الجماعة الطبيعية. لكنهم الآن مدعوون أن يأتوا معًا إلى مكان واحد، ويحضروا حياتهم، وعالمهم معهم، ليصيروا فوق ما كانوا عليه: جماعة جديدة ذات حياة جديدة. إن غرض الإتيان معًا ليس ببساطة هو أن نضيف بعدًا دينيًا للجماعة الطبيعية، لجعلها «أفضل» – أو أكثر مسئولية وأكثر مسيحّية. إنما الغرض هو تكميل الكنيسة. تبدأ الليتورجيا إذن **بانفصال حقيقي عن العالم**. إننا في محاولتنا جعل المسيحية نداء لرجل

الشارع، كثيرًا ما نخفض من شأن هذا الإنفصال بل كثيرًا ما ننساه نهائيًا. كثيرًا ما نسعى لأن نجعل المسيحية «مفهومة» و«مقبولة» لرجل الشارع المتمدين أو عاشق الأساطير. وهكذا ننسى أن المسيح الذي نتكلّم عنه «ليس من هذا العالم» وأنه بعد قيامته لم يكن معروفًا حتى من تلاميذه الأخصاء. مريم المجدلية ظنته أنه البستاني، وبينما اثنان كانا ذاهبين إلى عمواس **«اقترب إليهما يسوع وكان يمشي معهما»** ولم يعرفاه قبل أن **«أخذ خبزًا وبارك وكسَّر وناولهما»** (لو٢٤: ١٥و١٦و٣٠). وظهر للاثنى عشر **«بينما الأبواب مغلقة»** وكان واضحًا أنه لم يعد يكفي أبدًا أن يُعرف على أنه ابن مريم. ولم يكن هناك أي داع لمعرفته حسب الجسد وبكلمات أخرى، لم يعد مسيح القيامة «جزءًا» من هذا العالم وحقيقته، وأنه لكي نعرفه ولكى ندخل إلى فرح حضرته ونكون معه لابد أن نتحوّل إلى حقيقة أخرى.

إن تمجيد المسيح لا يضطرنا إلى براهين وإثباتات، إن مجده معروف فقط من خلال الموت السِّرى في جرن المعمودية، ومَسحَة الروح القدس. إنه معروف فقط في ملء الكنيسة، وهي تجتمع لتقابل الرب ولتشترك في حياته القائمة.

لقد أدرك المسيحيون الأوائل أنهم لكي يصيروا هيكلاً للروح القدس، لابد أن يصعدوا إلى السماء حيث صعد المسيح. ولقد أدركوا أيضًا **أن هذا الصعود كان هو الشرط الحقيقي لارساليتهم في العالم**، ولخدمتهم العالم. لأنهم- هناك في السماء- سبق أن اعتمدوا في حياة الملكوت الجديدة، بعد «ليتورجيا الصعود» هذه رجعوا إلى العالم ووجوههم تعكس

النور، وتطفح بـــ «فرح وسلام» هذا الملكوت، إنهم بالحقيقة شهوداً له. لم يأتوا معهم ببرامج ولا نظريات، لكنهم حيثما ذهبوا، فبذار الملكوت تنتشر، والإيمان يضطرم، والحياة تتجلّى، وأصبح غير المستطاع مستطاعًا كانوا شهودًا، وإذ كانوا يُسألون: «ومن أين يشرق هذا النور؟ وما مصدر هذه القوة؟» كانوا يعرفون بما يجيبون وإلى أين يقودون الناس. لكنك اليوم- للأسف- كثيرًا ما نجدنا في الكنيسة اليوم إزاء نفس العالم العتيق، لا إزاء المسيح وملكوته. ولا ندرك أننا لن نصل إلى مكان ما آخر، لأننا لم نترك أي مكان وراء ظهورنا.

أن نترك، وأن نأتي... هذه هي البداية، نقطة البدء في السُّر المقدس، هذا هو شرط انتفاعنا بقوة وحقيقة السرُّ.

- ٤ -

تبدأ الليتورجيا بالتمجيد المثلث المهيب: **«*مجدًا وإكرامًا، إكرامًا ومجدًا للثالوث الأقدس، الآب والابن والروح القدس، سلامًا وبنيانًا لكنيسة الله الواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية*»**.

منذ البداية وجهة السير معلنة: فالرحلة هي إلى دائرة حب الثالوث الأقدس، إن الموكب موكب الملكوت. هذا ما نحن ذاهبون إليه. ليس رمزيًا بل بالحقيقة. ففي لغة الإنجيل التي هي لغة الكنيسة. مباركة الملكوت لا تعني الهتاف له وحسب. بل إعلان أنه هو الهدف، والنهاية لكل أشواقنا واهتماماتنا، بل كل حياتنا، وأنه هو القيمة الكلّية لكل الموجودات.

أن تبارك يعني أنك تقبل بالحب، وأن تتحرك نحو ما تحب وما تقبل.

الكنيسة إذن، هي الجماعة التي أُستعلنت لهم غاية الحياة برمتها والذين قد قبلوا هذه الغاية وهذا المصير. هذا القبول يُعبر عنه بالإجابة الجماعية على الذوكصولوجى بقولها: «آمين».

إن كلمة «آمين» من أهم الكلمات في العالم، لأنها تعبر عن إتفاق الكنيسة على أن تتبع المسيح في صعوده إلى الآب، وعلى أن تجعل من هذا الصعود مصيرًا وغاية للإنسان. إنها هبة المسيح لنا، ففيه فقط يمكن أن نقول: «آمين» لله، أو بالحرى المسيح هو آميننا لله، والكنيسة هي آمين للسيد المسيح. وعلى هذه الـ «آمين» يتقرر مصير الجنس البشري كله لله، فهي تعلن أن الحركة نحو الله قد بدأت.

ولكننا مازلنا في البداية. فقد تركنا «هذا العالم». وأتينا معًا. لقد سمعنا إعلان مصيرنا النهائي. وقلنا «آمين» على هذا الإعلان نحن «الكنيسة»، ونحن الجواب على هذا النداء والأمر. وها نحن نبدأ بالصلوات والتوسلات العامة، **بفعل شكر مشترك ومفرح.**

ومرّة أخرى، لابد من التأكيد على الشخصية أو السمة الفرحة للتجمع الإفخارستي. فالليتورجيا، قبل أي شيء آخر، هي التجمّع المُفرح لمن هم قادمون لملاقاة المسيح القائم والذهاب معه إلى خدّر العرس. إنه فرح التوقع، وتوقع الفرح الذي يعبر عنه بالألحان الرائعة وبالطقوس الكثيرة سواء من جهة الملابس أو البخور أو ذلك الجمال بأسَره الذي يغمر الليتورجيا، الذي كثيرًا ما ندِّد به البعض ناعتين إيّاه بأنه غير ضروري بل ووصل بهم الأمر بأن نعتوه بأنه خاطئ.

صحيح أن ذلك كله ليس ضروريًا، ولكننا هنا نتخطى ما هو «ضروري». فالجمال ليس «ضروريًا» بحال ولا هو «وظيفي» ولا «نافع». لكن، إذا كنا ننتظر مجيء شخص نحبه، فإننا نضع فوق المائدة غطاءً جميلاً ونزينه بالشموع والزهور. وحينما نقوم بذلك ليس لأنه ضروريًا **بل لأننا نحب، وما الكنيسة إلاّ حب ورجاء وفرح!؟**

إن الكنيسة في تقليدنا الأرثوذكسى، هي السماء على الأرض. فقط استعادة فرح الطفولة البريئة، هذا الفرح الحر المنطلق، غير المشروط، الذي بلا همّ، هو وحده يستطيع أن يغيّر العالم...

فطالما أحب المسيحيون ملكوت الله دون الاكتفاء بالتحدّث عنه فإنهم يصورونه بالفن والجمال. فيبدو خادم السرُّ في ثوب جميل لأنه يرتدى مجد الملكوت، ولأن الله، حتى في هيئة الناس، ظهر بمجد. ونحن، متى وقفنا، في سُرّ الإفخارستيا، في حضرة المسيح، كموسى أمام الله، لابد لنا من أن نتغطّى بمجده. لقد لبْس المسيح نفسه ثوبًا غير مخيط لم يرض الجنود أن يشقوه وهم وقوف تَحت الصليب. إنه ثوب لم يُشتر من السوق، وأغلب الظن أن يدّين مُحبتّين قد نسجتاه. وقد وصف لنا أحد اللاهوتيين هذا الجمال «غير اللازم» بقوله: "في الليتورجيا ينال الإنسان بواسطة النعمة الفرصة لأن يستعيد جوهره الأصلى ولأن يصبح ما يجب أن يكونه تبعًا للتدبير الإلهي: أى يصبح طفلاً لله. وفي الليتورجيا عليه أن يذهب إلى الله الذي يعطى جمالاً لقوته ولأن حياة الليتورجيا هي أعلى من تلك التي اعتادها الناس فهي تستعمل الأشكال والوسائل غير العادية- أي أنها تستعين بالفن. إنها تُصلى بالنغم الموزون، وتستخدم حركات متناسقة فى

الطقوس وترتدي الألوان الغريبة عن الحياة اليومية. إنها حياة الطفولة في أسمى معنى: الحياة التي فيها كل شيء بالأيقونة واللحن والترتيلة. وهذا هو الواقع العجيب الذي تبسطه لنا الليتورجيا وهو أن الفعل قد توحّد بالحقيقة في طفولة تفوق الطبيعة أمام الله".

– ٥ –

الفعل الثاني في الليتورجيا هو **الدخول**: مجيء المحتفى بالسرِّ إلى داخل المذبح. أنه ليس رمزًا، بل هو حركة الكنيسة كمعبر من القديم إلى الجديد. من «هذا العالم» إلى «العالم الآتي»، وبهذا يكون الدخول هو الحركة الأساسية في «الرحلة الليتورجيا». ففي «هذا العالم» ليس هناك مذبح ولا هيكل لأن الهيكل قد نُقض ولم يُترك فيه حجر على حجر. **المذبح الوحيد هو المسيح نفسه**، بطبيعته الواحدة غير المنقسمة وغير المتجزئة: «الإله الكلمة المتجسد»، الذي اتخذ لنفسه جسدًا وبناه هيكلاً للرب، أنه هيكل حضور الله فيما بيننا. لقد صعد المسيح إلى السماء، وهكذا فإن المذبح الذي نراه في كنائسنا الأرثوذكسية هو **علامة**: على أننا في المسيح قد صار لنا دخول إلى السماء، وعلى أن الكنيسة هي المعبر إلى السماء، **والدخول إلى قدس الأقداس السماوي**، وعلى أنه «بالدخول» أي بصعود الكنيسة إلى السماء تكمل الكنيسة نفسها وتصير حقًا هي الكنيسة.

وهكذا فالدخول إلى الإفخارستيا، هذا الاقتراب الذي يقترب به الكاهن (وفي الكاهن تقترب الكنيسة كلها وتدخل) من المذبح ليس رمزًا. أنه العمل الصريح والحاسم الذي به تُستعلن أبعاد السِّر وتتأسس فهنا، ليست «النعمة» هي التي تنـــزل من فوق، بل الكنيسة هي التي تدخل أولاً

إلى «النعمة». والنعمة هنا يقصد بها «الوجود الجديد» أو «الملكوت» أو «العالم الآتي».

وحينما يقترب الكاهن من المذبح تترنم الكنيسة بالتسبحة التي ينشدها الملائكة على الدوام وهي «قدوس الله. قدوس القوي. قدوس الحي الذي لا يموت.. يقول الكاهن: ***قدوس، قدوس، قدوس، بالحقيقة أيها الرب إلهنا... أنت هو الذي يقف حولك الشاروبيم. الممتلئون أعينًا. والسيرافيم ذوو الستة أجنحة... الجالس على كرسي مجده. المسجود له من جميع القوات المقدسة***». فالملائكة هنا ليسوا للزينة والإلهام، أنهم يقفون نيابة عن السماء، بالضبط مثالاً لذلك العالم المجيد اللامدَرك الذي لا نعلم عنه غير شيء واحد هو أن صوت التسبيح يتجاوب فيه دومًا تسبيحًا للمجد الإلهي وقداسته.

و«قدوس» هو الاسم الحقيقي لله: الله الحي الذي تؤمن به القلوب. والمعرفة عن الله لا تصل إلاّ إلى تلك الكلمة اللامدَركة ولو أنها واضحة ولا مفر منها: القداسة، وبهذه الكلمة نعبر عن أن الله هو ذلك «المطلق الآخر» الذي لا نعرف عنه شيئًا، وهو هدف كل جوعنا وكل أشواقنا، إنه غير المحوى الذي يجند كل إرادتنا، الكنـــز المخفي الذي يجتذبنا و«قدوس» هي الكلمة. هي الترنيمة. هي تجاوب الكنيسة عندما تدخل إلى السماء وتقف أمام المجد السماوي الذي لله.

— ٦ —

الوضع الأصيل في الكنيسة هو أن المؤمنين المحتفلين بسرُّ الإفخارستيا، يأتون إلى الكنيسة وعالمهم معهم يقدّمونه ذبيحة، قربانًا، في شكل عناصر

طعام الإنسان الأساسية: القمح وعصير الكرمة، الخبز والخمر، رمزان للطعام «المادي» والحياة «المادية».

لذلك فإن المحتفل (والكنيسة معه) يقدّم للرب في صلاة الاستعداد «*صعيدة البركة، مجدًا وعظم بهاء في قدسك*»، ويتوسل إلى الله « *معطى النعمة. مرسل الخلاص. الذي يفعل كل شيء في كل أحد*». أن يعطي أن تكون مقبولة أمامه «ذبيحتنا». الكنيسة كلها تقدّم نفسها ذبيحة أمام العرش السماوي في بدء الليتورجيا.

والآن، وللمرة الأولى منذ بدأت الرحلة الليتورجيا يلتفت الكاهن ناحية الشعب ويختار «الحمل» ويسكب الخمر، ويدور حول المذبح رافعًا «الحمل» على رأسه قائلاً:

«مجدًا وإكرامًا. إكرامًا ومجدًا للثالوث الأقدس الآب والابن والروح القدس، سلامًا وبنيانًا لكنيسة الله الواحده المقدسة الجامعة الرسولية، آمين، اذكر يارب الذين قدموا لك هذه القرابين والذين قُدمت عنهم والذين قدمتم بواستطهم أعطهم كلهم الأجر السماوي».

وهذا الأجر «الذي من السموات» الذي تنتظره الكنيسة ليس سوى الخبز «النازل من السموات».

والآن ولأول مرّة منذ بدأ الموكب الإفخارستي، يتجه الكاهن نحو الشعب. فإلى هذه اللحظة كان يقود الكنيسة في صعودها، أمَّا الآن فقد بلغت الحركة هدفها. والكاهن هنا ليتورجيته ووظيفته الفردية وطاعته في الكنيسة هو أن يمثّل كهنوت السيد المسيح نفسه أى أن يجعله حاضرًا.

يقول الكاهن للشعب: «*السلام لجميعكم*».

ففي السيد المسيح يعود الإنسان إلى الله، وفي السيد المسيح يأتي الله إلى الإنسان. فهو بوصفه آدم الجديد- الإنسان الكامل- يقودنا إلى الله، وبوصفه الله الظاهر في الجسد يعلن لنا الآب ويصالحنا معه. إنه سلامنا ومصالحتنا مع الله. والسلام الذي يعطيه لنا الكاهن ويمنحنا إيّاه هو السلام الذي أقامه السيد المسيح بين الله وبين عالمه الذي دخلناه نحن: الكنيسة.

وفي داخل هذا السلام الذي يفوق كل عقل يبدأ قدَّاس الكلمة. لقد اعتاد المسيحيون الغربيون الفصل بين الكلمة والسُّر الكنسي لدرجة أنه قد يكون من الصعب عليهم فهم أن قدَّاس الكلمة في المنظور الأرثوذكسي، هو ذو طابع سرِّى كما إنه ذو طابع «إنجيلي» أيضًا. فالسُّر هو ظهور لكلمة الله. وما لم نُعد الوحدة بين الكلمة والسُّر، فستفوتنا المعاني الرائعة للسرائرية المسيحية.

إن إعلان «الكلمة» عمل سرِّى في أعلى معنى لأنه فعل تحويل. إنه يحوّل الكلمات الإنسانية التي للإنجيل إلى «كلمة الله» واستعلان ملكوته كما يحوّل سامع الكلمة إلى إناء لها وإلى هيكل للروح القدس. وفي كل عشية من عشيات الأحد، في وقار صلوات رفع البخور يؤتي بالإنجيل إلى وسط الشعب[1]. وبهذا العمل يكون ذلك بمثابة إعلان ظهور ليوم الرب. لأن الإنجيل ليس مجرد «سجل» لقيامة السيد المسيح وحسب، بل أن كلمة الله هى مجيء المسيح القائم من الأموات إلينا، إنها قوة القيامة وفرحها بالفعل.

---

(١) حسب الطقس البيزنطى.

ويسبق قراءة الإنجيل لحن «هلليلويا»: تلك الكلمة السِّرية الحاملة لله «ثيئوفورس» التي هي تحية الفرح من أولئك الذين يرون مجيء الرب ويعرفون حضرته ويعبّرون عن فرحتهم بهذا التجلى المجيد. ولهذا السبب بعينه كانت قراءة الإنجيل والوعظ في الكنيسة الأرثوذكسية عملاً ليتورجيا، إنه جزء جوهري لازم من السِّر المقدس. والليتورجيا تُسمع بوصفها كلمة الله ويتقبلها السامع بالروح القدس- أي أنه يتقبلها في الكنيسة التي هي حياة الكلمة ونموها في العالم.

- ٧ -

الخبز والخمر: لكي نفهم معناهما الرئيسي الأبدي في الإفخارستيا، ينبغي أن ننسى إلى حين الجدال الذي لا ينتهي والذي حولهما قليلاً قليلاً إلى مجرد «مادة السِّر».

والآن إذ نتقدّم أكثر في ليتورجية الإفخارستيا، حان الوقت لأن **نقدّم لله إجمالي حياتنا وذواتنا والعالم الذي نعيش فيه.** هذا هو المعني الأول لإحضارنا عناصر طعامنا إلى المذبح. فلقد عرفنا إن الطعام هو الحياة، فهو العنصر الأول للحياة، وإن العالم كله قد خُلق طعامًا للإنسان وعرفنا أننا إذ نقدم هذا الطعام، وهذا العالم، وهذه الحياة لله فإن هذا هو العمل الأساسي الإفخارستي للإنسان، استكمال حياته الحقيقية كإنسان .

لقد عرفنا أننا خُلقنا لإقامة سِّر الحياة، وتحويل الحياة إلى الحياة في الله، وشركة مع الله. وعرفنا إن الحياة الحقيقية هي إفخارستيا، هي حركة حب وعبادة نحو الله، الحركة التي فيها فقط يمكن أن يُستعلن ويتحقق معني

وقيمة كل ما هو موجود. وعرفنا أيضًا أننا فقدنا هذه الحياة الإفخارستية، وأخيرًا عرفنا أنه في المسيح- آدم الجديد- الإنسان الكامل، أُعيدت هذه الحياة للإنسان. لأنه هو نفسه كان «الإفخارستيا الكاملة» فقد قدّم نفسه في طاعة كاملة وحب كامل وشكر كامل إلى الله. كان الله هو حياته بالذات. وهو أعطانا حياته الإفخارستية الكاملة، وفي المسيح صار الله حياتنا نحن أيضًا.

وهكذا فإن تقدَّمة الخبز والخمر لله هذه، تقدِّمة الطعام الجسدى الذي ينبغي أن نأكله حتى نحيا، هي بمثابة تقدِّيمنا ذواتنا له، تقدِّيمنا حياتنا وكل العالم. هناك تعبير رائع لأحد الشعراء الروس إذ يقول "أن نحمل العالم كله في أيدينا كما لو كان تفاحة". إنها إفخارستيتنا. إنها الحركة التي أخفق آدم في القيام بها، والتي صارت في المسيح هي الحياة الحقيقية للإنسان. إنها حركة عبادة وتسبيح، فيها يُحال كل فرح وألم، كل جوع واكتفاء إلى غايته النهائية بعدما اكتمل معناه. فالإنسان كائن ذبائحي، لأنه يجد حياته في الحب، والحب ذبيحة. والحب يحدِّد «قيمة» الحياة، ومعناها الحقيقي أنها في الآخر وفي عطاء الحياة للآخر، وفي هذا العطاء، وهذه الذبيحة، يجد الإنسان لحياته معنى وبهجة.

إذن فها نحن نقدم العالم وذواتنا إلى الله. لكننا نفعل ذلك بواسطة المسيح وتذكارًا له. نفعل ذلك في المسيح لأنه سبق وأن قدّم كل ما كان لابد أن نقدّمه إلى الله. لقد قام مرّة واحدة ومن أجل الكل بهذه الإفخارستيا ولم يترك شيئًا إلاّ وقدّمه. فيه كانت الحياة - وهذه الحياة التي لنا جميعًا، قدّمها لله. الكنيسة هي كل أُولئك المقبولين في حياة المسيح

الإفخارستية. ثم نحن نفعل ذلك تذكارًا له، لأننا ونحن نقدم حياتنا والعالم إلى الله مرّة تلو المرّة، نكتشف في كل مرّة أنه ليس هناك ما يُقدّم سوى المسيح ذاته حياة العالم، ملء كل ما هو موجود. وهو الإفخارستيا، كما تقول صلاة التقدّمة: هو الكاهن مقدم الذبيحة وهو الذبيحة المرفوعة. إن الليتورجيا تقودنا إلى المسيح إفخارستيتنا وتعلن لنا أن الإفخارستيا الوحيدة، والتقدّمة الوحيدة للعالم هي المسيح. فإننا نأتي تلو المرّة بحياتنا لنقدمها، نأتي ونقرّب، أي نعطى لله ما أعطانا إيّاه وفي كل مرّة نصل إلى نهاية كل الذبائح، وكل التقدّمات، وكل إفخارستيا، لأنه في كل مرّة يُستعلن لنا أن المسيح قدّم كل ما هو موجود، وأنه هو وكل ما هو موجود قد قُدما في تقدّمة ذاته. نحن محتوون في إفخارستيا المسيح والمسيح هو إفخارستيتنا.

وإذ تتحرك المسيرة، تحمل الخبز والخمر إلى المذبح، وقد عرفنا إن المسيح هو الذي يأخذ جميعنا وحياتنا برمتها إلى صعوده الإفخارستي. وهذا هو السبب في أننا نتذكر في هذه اللحظة من الليتورجيا الآخرين، ونقول: ***«اذكر يارب كل الذين أوصونا أن نذكرهم في سؤالاتنا وطلباتنا، الرب يذكرهم في ملكوته الذي في السماوات»*** التذكّر عمل حب، الله تذكرنا وتذكّره إيانا وحبه لنا هو أساس العالم. في المسيح، نحن نتذكر. نصير مرّة أخرى كائنات منفتحة للحب، فنتذكر أن الكنيسة في انفصالها عن هذا العالم، أي في رحلتها إلى السماء، تتذكر العالم، تتذكر كل الناس، تتذكر الخليقة كلها، تأخذهم في حب إلى الله. إنها استعادة الحب من حيث هو حياة العالم الحقيقية.

– «*فلنشكر الرب*» (*ايفخاريستى سومين طوكيريو*)

– ١٠ –

حين يقف الإنسان أمام عرش الله، وبعد أن يكون قد أكمل كل ما أعطاه الله أن يكمّله، أي بعد أن تكون الخطايا كلها غُفرت، ويسترد كل فرح، حينئذ لن يكون أمام هذا الإنسان سوى أن يرفع الشكر.

الإفخارستيا (أي الشكر) هي حالة الإنسان الكامل. الإفخارستيا هي حياة الفردوس. الإفخارستيا هي الجواب الوحيد الكامل والحقيقي الذى يعطيه الإنسان عن خلق الله، وعن فدائه وعطية الروح القدوس. **أمّا هذا الإنسان الكامل الذي يقف أمام الله فهو المسيح.** ففي المسيح وحده، كل ما أعطاه الله للإنسان قد بلغ كماله وفيه وحده أُعيد الإنسان إلى السماء. إنه هو وحده الكائن الإفخارستي الكامل. هو إفخارستيا العالم. في هذه الإفخارستيا ومن خلالها صارت الخليقة مرّة أخرى على ما كان ينبغي أن تكون عليه قبل السقوط، وفشلت أن تكونه.

❖ «*مستحق وعادل*».

هكذا ترد الكنيسة لتعبر عن الخضوع غير المشروط الذي هو بدء كل تقوى. فالإيمان ليس هو ثمرة البحث العقلي ولا هو الحل المنطقى لاضطرابات الحياة وقلقها، وهو لا ينشأ عن شعور بأنّ ثمّ «نقصًا» ما قد حدث، ولكن الإيمان ينشأ عن الامتلاء والحب والفرح. وكلمة «مستحق وعادل» تعبر عن كل هذا، فهي الجواب الوحيد الممكن لدعوة الله لنا أن نحيا ونـنال الحياة الأفضل.

ثم يبدأ الكاهن في الصلاة الإفخارستية:

❖ «مستحق وعادل، مستحق وعادل، مستحق وعادل. لأنه بالحقيقة مستحق وعادل ومقدس ولائق ونافع لنفوسنا وأجسادنا وأرواحنا... **أن نسبحك ونرتل لك ونباركك ونخدمك ونسجد لك ونشكرك ونمجدك. ونعترف لك ليلاً ونهارًا. بشفاه غير هادئة وقلب لا يسكتُ. وتمجيدات لا تنقطع**. أنت هو الذي خلق السموات. وما في السموات والأرض.... أنت هو الذي خلق الإنسان كصورتك وكشبهك. وخلقت كل الأشياء بحكمتك. نورك الحقيقي ابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا وملكنا كلنا يسوع المسيح. هذا الذي **من قبله** نشكر. ونقرّب لك **معه** ومع الروح القدس الثالوث المقدس المساوي غير المفترق. هذه الذبيحة الناطقة. وهذه الخدمة غير الدموية..» (قداس القديس كيرلس الكبير).

بالرغم من أن هذه الصلاة التي وردت في القداس الكيرلسي لها مثيلها في كافة القداسات الأخرى إلاّ أنه للأسف، كثيرًا ما لا يلتفت إليها المصلّون وكأنها «مقدّمة» أو «تمهيد» كتاب لا يهتم به القارئ. ولم تحظ باهتمام يذكر في دراسة تطوّر اللاهوت الإفخارستي. مع أنها تحوى كل «لاهوت الإفخارستيا». فلولا هذه الصلاة، هذا الفعل، هذه الكلمات، حركة الشكر هذه، لما صار ممكنًا أن يكون ما يليها ممكنًا. فإفخارستيا المسيح، والمسيح الإفخارستيا، هو الذي «من قبله» و«معه» نقدم نحن إفخارستيتنا، ونتقدّم إلى مائدة الملكوت، ونصعد إلى السماء، ويجعلنا أن نتناول هذا «الخبز الإلهي».

فالإفخارستيا- التي هي شكر وتسبيح وبركة وتمجيد واعتراف.. ألخ

(نظُر الصلاة السابقة) هي المضمون الحقيقي والشكل الحقيقي للحياة الجديدة التي منحنا الله إيّاها حينما صالحنا في السيد المسيح.

فالمصالحة، والمغفرة، وقوة الحياة مع الله ولله- كل هذه تجد تحقيقها وغايتها في هذه الحالة الجديدة من الوجود، بل في هذه الوسيلة الجديدة التي هي الإفخارستيا، **هذه هي الحياة الحقيقية الجيدة للخليقة مع الله وفي الله، هذه هي العلاقة الجديدة بين الله والعالم.**

إنها بالفعل «مقدمة» العالم الآتي، والمدخل إلى الملكوت: وهذا هو ما نعترف به ونعلنه حينما نؤكد- ونحن نتكلّم عن الدهر الآتي- إن الله قد وهبه لنا سلفاً. هذا الملكوت الآتي قد أعطاه الله لنا في الماضي حتى يؤلف حاضرنا بالذات، أي حاضر الحياة عينها الآن، أي الكنيسة.

– ١١ –

وتستكمل الصلاة نفسها في التقديسات الثلاثة.«قدوس. قدوس. قدوس» الذوكصولوجية الأبدية جوهر كل ما هو موجود: «السماء والأرض مملوءتان من مجدك الأقدس». لابد لنا أن نصعد إلى السماء لنرى ونفهم الخليقة في كيانها الحقيقي كتمجيد لله. كجواب على المحبة الإلهية التي فيها وحدها تصير الخليقة على ما أرادها الله أن تكون: الشكر، الإفخارستيا، التمجيد.

يقول الكاهن المحتفل بالإفخارستيا (والكنيسة كلها معه وفيه تقول):

❖ *« الذى يقف أمامه الملائكة ورؤساء الملائكة، والرئاسات والسلطات والكراسى والأرباب والقوات.*

أنت هو الذي يقف حولك الشاروبيم الممتلئون أعينا، والسيرافيم ذوو الستة الأجنحة، يسبحون على الدوام بغير سكوت قائلين: الشاروبيم يسجدون لك، والسيرافيم يمجدونك، صارخين قائلين: قدوس، قدوس، قدوس، رب الصاباؤوت، السماء والأرض مملوءتان من مجدك الأقدس».

هذه هي الغاية من كل ما هو موجود والقصد والهدف والملء لأن هذه هي البداية ومبدأ الخليقة.

- ١٢ -

وإذ نقف أمام الله، نتذّكر كل ما صنعه من أجلنا، ونقدّم له شكرنا على كل انعاماته، ونكتشف أن مضمون هذا الشكر كله والتذكار بأكمله هو السيد المسيح. **«فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس»** (يو ١: ٤).

وفي ضوء الإفخارستيا نرى السيد المسيح هو فعلاً الحياة والنور لكل الكائنات، وهو المجد الذي يملأ السماء والأرض. ليس ثمة ما نذكر، وليس هناك شيء آخر للشكر من أجله، لأن في المسيح كل شيء يجد كيانه وحياته وغايته.

في التقديسات الثلاثة نأتي هكذا ببساطة ومنطقيًا إلى ذلك الإنسان الوحيد، وإلى تلك الليلة الفريدة، وإلى ذلك الحدث الوحيد الذي وجد فيه العالم دينونته وخلاصه في آن واحد.

وحينما نعي جيدًا معنى التقديسات ونعيش في أعماق أعماقها حينئذ يمكننا أن نصل إلى صلاة «التذكار». فصلاة «التذكار» هي تحقيق تمجيدنا،

❖ «*ففيما نحن أيضًا نصنع ذكر آلامه المقدسة وقيامته من الأموات وصعوده إلى السموات وجلوسه عن يمينك أيها الآب وظهوره الثاني الآتي من السموات، المخوف والمملوء مجدًا، نقرب لك* ***قرابينك من الذي لك، على كل حال ومن أجل كل حال وفي كل حال***».

- ١٣ -

إلى هذه اللحظة كانت الإفخارستيا هي صعودنا في المسيح، ومدخلنا- في المسيح- إلى ما داخل «العالم الآتي». والآن لقد بلغت التقدّمة الإفخارستية في المسيح التي فيها قدّمنا كل شيء لله الواحد الذي يمتلك كل الأشياء- لقد بلغت حركة الصعود هذه الآن غايتها. والآن، ها نحن ملتفون حول المائدة الفصحية التي للملكوت. وما قدّمناه: طعامنا، أي حياتنا، ونفوسنا، وكل العالم بأجمعه - إنما قدّمناه في السيد المسيح وبحسب المسيح ومن «قِبَل المسيح» (كما تقول صلاة القداس الكيرلسى: لأن المسيح نفسه قد اتخذ لنفسه حياتنا وهو حياتنا).

والآن كل هذا الذي قدّمناه يعود لنا ثانية، باعتباره **هبة الحياة الجديدة**، أي باعتباره **طعامًا**- بالضرورة.

❖ «***هذا هو جسدي. هذا هو دمي. خذوا، كلوا، اشربوا***»

يأتي بعض اللاهوتيين جيلاً وراء جيل ليتساءلوا نفس الإسئلة. كيف يمكن أن يكون هذا؟ وكيف يحدث هذا؟ وما الذي يحدث بالضبط في هذا التحوّل؟ ومتى بالضبط. وما هو السبب؟ ولا إجابة شافية تُقدَّم، بل كل ما يُقدَّم يثير الجدل أكثر. هل هو رمز؟ ولكن ما هو الرمز؟ هل تحوّل

جوهرى وكيف؟

ولكننا نلاحظ أن هناك شيئًا ما ناقصًا في كل هذه النظريات التي تختزل السرُّ في مصطلحات هذا الزمان الحاضر.

هناك شيء ما ناقص لأن المتسائلين والمجادلين يفكرون في السرُّ وينسون الليتورجيا. الباحث العالم يحدد هدف دراسته وبحثه أولاً، ثم يختزله إلى لحظة واحدة، إلى «ظاهرَة» واحدة، ثم يبدأ بعد ذلك متدرجًا من العموميات إلى الخصوصيات، من المعلوم إلى المجهول، يبدأ في استخراج التحديدات التي هي في الحقيقة تثير التساؤلات أكثر مما تعطى الإجابات. ولكن النقطة الأساسية في دراستنا، في أن الليتورجيا بأكملها سرائرية، أي عملاً واحدًا يأخذ صفة التحوّل وحركة صعود واحدة. والهدف الحقيقي لحركة الصعود هذه هو أن تأخذنا خارجًا عن «هذا العالم» وتجعلنا شركاء في العالم الآتي.

وفي «هذا العالم»- العالم الذي حكم على المسيح وبعمله هذا حكم على نفسه بالموت- في هذا العالم لا يوجد خبز ولا خمر يمكن أن يصير جسد المسيح ودمه. لا يمكن أن نأخذ **جزءًا** من هذا العالم، و«نقدسه». ولكن ليتورجيا الكنيسة هي دائمًا أنافورًا. أي رفع وصعود. الكنيسة تستكمل وتستوفي نفسها في السماء، في ذلك العالم الجديد الذي افتتحه المسيح بموته وقيامته وصعوده وأعطاه للكنيسة يوم الخمسين بوصفه حياتها والهدف الذي تتحرك نحوه.

في هذا العالم «صُلِبَ المسيح وكُسِرَ جسده وسفك دمه» إذن لابد أن

نخرج من هذا العالم، ونصعد إلى السماء في المسيح حتى يمكن أن نشارك «العالم الآتي».

ولكن هذا «العالم الآتي» ليس عالمًا آخر مختلفًا عن العالم الذي خلقه الله وأعطاه لنا. **إنه نفس عالمنا، الذي قد تكمّل بالمسيح ولكنه لم يتكمّل بعد فينا.** إنه نفس عالمنا المفتدى والمستعاد الذي ملأه المسيح بنفسه. وحيث إن الله قد خلق العالم طعامًا لنا وأعطانا الطعام كوسيلة للشركة معه والحياة فيه- **لذلك فالطعام الجديد الذي للحياة الجديدة الذي نناله من الله في ملكوته ليس سوى المسيح ذاته.** فالمسيح هو خبزنا- لأن كل جوع منذ البداية كان هو الجوع إليه وكل خبز كنا نأكله لم يكن سوى رمز إليه. رمز قد أصبح واقعًا حقيقيًا.

لقد تجسَّد المسيح وعاش في «هذا العالم» وأكل وشرب، وهذا معناه أن العالم الذي أكل منه طعامنا صار جسده وحياته. ولكن حياته- كما قلنا أيضًا- كانت بأكملها إفخارستية وقد تحولت بأكملها إلي حياة في الله وصعدت كلها إلى السماء. والآن ها هو يشركنا في هذه الحياة المجيدة، وكأنّي به يقول لنا: «ما صنعته أنا وحدي أعطيكم إياه الآن: خذوا كلوا».

لقد قدّمنا «الخبز» لذكرى المسيح لأننا نؤمن أن المسيح هو الحياة، وإن كل «طعام» لابد أن يقودنا إلى المسيح. والآن، فحينما نتناول هذا **الخبز من يدّيه الطاهرتين**، نؤمن بأنه قد ملأ كل الحياة، ملأها بذات نفسه، جعلها على ما كان يجب أن تكون: أي الشركة مع الله، سُرّ حضور الله وحبه. هناك وهناك يمكننا أن نعترف مع القديس باسيليوس الكبير في قداسه

الإلهي أن «هذا الخبز هو جسد حقيقي ليسوع المسيح إلهنا، وهذا الخمر هو دم حقيقى ليسوع المسيح إلهنا». والآن، فإن ما نعتبره هنا- في هذا العالم- أنه «فائق للطبيعة» هو هناك «طبيعيًا». وأنه حتى تقودنا الكنيسة إلى هناك وتجعلنا ما يجب أن نكون عليه، تستكمل الكنيسة وتحقق نفسها في الليتورجيا.

- ١٤ -

إن الروح القدس هو الذي يستعلن به الخبز جسدًا مقدسًا والخمر دمًا زكيًا. والكنيسة الأرثوذكسية أكدت باستمرار أن العنصر الإفخارستي[١] يتحقق بصلاة استدعاء الروح القدس. فالروح القدس يأتي «في اليوم الأخير العظيم» — من يوم العنصرة ليعلن العالم الآتي. إنه يفتح الملكوت. إنه يأخذنا دائماً إلى ما هو فوق: أن نكون فى الروح القدس معناه أن نكون في السماء لأن ملكوت الله هو «فرح وسلام في الروح القدس»[٢]. وهكذا فإن الروح القدس في الإفخارستيا هو الذي يختم ويؤكد صعودنا إلى السماء، هو الذي يحوّل الكنيسة إلى جسد المسيح وبالتالي يحوّل عناصر تقدمتنا إلى تناول في الروح القدس- هذا هو التقدّيس.

-١٥-

والآن وقبل أن نتقدّم لنتناول من الطعام السماوي، يتبقى عمل أخير، ضروري وجوهري، هو عمل **الشفاعة**.

---

(١) أي الخبز والخمر.

(٢) (رو ١٤: ١٧)

الثبات في المسيح يعني أن نكون مثله و**«حيث أنه حيّ في كل حين ليشفع في الذين يتقدمون به إلى الله»** (عب٧:٢٥)، فليس أمامنا سوى أن نعتبر شفاعته كأنها شفاعتنا نحن. الكنيسة ليست مجتمعًا للهروب إليه من هذا العالم لنتذوق فيه بركات الخلود وحدنا.. «التناول» أو سُّر الشركة ليس «اختبارًا تصوفيًا» لكننا نشرب كأس المسيح، المسيح الذي «سلّم نفسه عن حياة العالم» فالخبز الموضوع في الصينية والخمر الذي في الكأس يذّكرنا بتجسد ابن الله وبصليبه وموته. وهكذا فإن الفرح الحقيقي الذي للملكوت هو الذي يجعلنا نتذّكر العالم ونصلي من أجله. أن الشركة مع الروح القدس التي تمكنا من أن نحب العالم بمحبة المسيح. الإفخارستيا هي سُّر الوحدة، وهي لحظة الحق: فهنا نرى العالم في المسيح، كما هو على حقيقته، ولكن ليس من وجهة نظرنا نحن، التي هي نظرة خصوصية محدودة. الشفاعة تبدأ هنا من مجد وليمة المسيا، وهذه هي البداية الحقة لارسالية الكنيسة. فنحن منذ أن ننـــزع عنا كل اهتمام أرضي نكون وكأننا تركنا هذا العالم حتى نربحه ونسترجعه مرة أخرى ولكن فى كل حقيقته.

التشفع هو- إذن- الاستعداد الحقيقي للتناول. فإننا في التناول نصير جسدًا واحدًا وروحًا واحدًا، ليس هذا فحسب، بل نسترجع ثانية تماسك العالم وتناغمه وحبه بعضه مع بعض تلك الأمور التي فقدها العالم بسقوط الإنسان.

وهكذا تطلب الكنيسة من أجل كل نفس بحسب وضعها وحالتها، تطلب من أجل الملوك والرؤساء وكل الذين هم في منصب، تطلب من

أجل الزروع والثمار وأهوية السماء وكل شجرة مثمرة، تطلب من أجل الجزائر والكور والأديرة... تطلب من أجل كل إنسان ومن أجل كل شيء.

في نهاية صلوت الإفخارستيا نصلى الصلاة الربانية وكأنها خلاصة كل هذه الصلوات. فهذه هي صلاة المسيح نفسه التي أعطاها لنا لتكون هي صلاتنا، تمامًا كما جعل أباه أبًا لنا. ليس ولا واحد «مستحق» أن ينال الشركة المقدسة، لا يوجد مَنْ هو «مستعد» لها. وبسبب عدم الاستحقاق هذا. فكل برٍّ وكل تقوى تختفي وتضمحل. الحياة تعود لنا ثانية كقربان إلهي مجاني. هذا هو السبب الذي من أجله تسمى عناصر السُّر «القرابين المقدسة». ها هو آدم يدخل الفردوس ثانية ليُتوج ملكًا - مرّة ثانية - على الخليقة. كل شيء مجانًا. ليس شيء بفضة أو ذهب، الكل يعطى مجانًا. الاتضاع الحقيقي والطاعة الحقيقية تكّمن في قبول القربان المجاني بشكر وفرح. ليس أمامنا شيء لنفعله ولكننا نصير كما أراد الله لنا أن نكون عليه منذ الأزل حينما كنا كائنات إفخارستية.

- ١٦ -

والآن حان وقت العودة للعالم.

❖ «*امضوا بسلام. سلام الرب يكون معكم*». هكذا ينادي الكاهن وهو خارج من المذبح وهذه هي **آخر وصية** في الليتورجيا.

لا يليق أن نبقى على جبل التجلى مع أننا نعلم أنه «جيد أن نكون ههنا». فنحن الآن مبعوثين. لقد «رأينا النور الحقيقي، وأخذنا شركة

وموهبة الروح القدس». لذلك فلابد أن «ننطلق ونذهب» لنبدأ إرسالية الكنيسة التي لا تنتهي.

تناول الإفخارستيا هو نهاية الرحلة. والآن هنا بداية الشهادة. الزمان المختص بالعالم قد أصبح الآن هو الزمان المختص بالكنيسة، زمان الخلاص والفداء.

والله جعلنا أهلاً أن نكون شهوده وأن نتمم العمل الذي بدأه والذي هو مستمر في عمله. وهذا هو معنى الإفخارستيا، وهذا هو السبب في أن رسالة الكنيسة تبدأ بليتورجيا الصعود. لأن الليتورجيا وحدها هى التي تجعل ليتورجيا الرسالة ممكنة.

✠ ✠ ✠ ✠

الليتورجية «سرٌ» وليست «سحرًا». فالإفخارستيا هي **دخول** الكنيسة إلى فرح سيدها. والدخول إلى الفرح يتحوّل فيما بعد إلى شهادة له في العالم. وهذه هي دعوة الكنيسة وخدمتها أي «ليتورجيتها».